الأجراك:
تراث سندي وحرفة حيّة

تحقيق: زبير طاهر
تصوير: فراز أحمد

"الأجراك" هو كتلة من القماش المطبوع بالقرمزي الأحمر على خلفية من الأزرق النيلي، ويحمل أنماطا متناظرة وتتخلله أشكال غير مطبوعة بيضاء متألقة، ومعظمها من النجوم. وهو وإن كان مصنوعا من القطن، فمرونته تذكّر بملمس الحريري. والأجراك أكثر من نسيج، فهو تقليد سندي، ويمكن تعقب أصوله إلى أقدم المكتشفات الأثرية للحضارة الهندية القديمة مثل حفريات مون -جو- ديرو. وكان بالمثل مادة شعبية منذ أقدم الأوقات وحتى اليوم، حيث يستخدم في المناطق الحضرية والريفية والبدوية.

ويستخدم الأجراك في السند من المهد إلى اللحد، فهو يستخدم أرجوحة (أو مهدا) للرضّع، وغطاء الرأس للبنات، وزينة للعروس في يوم الزفاف، وعمامة، وشالا، ويعلّق فوق الأكتاف علامة اعتزاز يلبسه الرجال، وغطاءا للسرير، وللمائدة، وهدية، وعربون احترام للضيف، وللحماية من تبدلات الطقس حيث يكون هذا الملبس باردا في الصيف ودافئا في الشتاء، وأخيرا وليس آخرا فإنه يلف مثل العلم فوق الجنائز تكريما لأرواح المتوفين. واستخدم أكثر رؤوساء الدولة وكبار الشخصيات في باكستان الأجراك في اجتماعاتهم العامة لعرض تضامنهم واحترامهم لمقاطعة السند.

للحصول على فكرة مباشرة عن صناعته، قمنا بزياره مدن صغيرة، وهي متياري، بهت شاه وهالة، وتقع كلها في، وبالقرب من، منطقة حيدر آباد المجاورة لمنطقة كراتشي في باكستان.

بهت شاه معروفة بسبب الضريح الكبير للشاعر السندي الصوفي "شاه عبد اللطيف

ضريح بهت شاه

Bhit Shah Mausoleum

بهتاي" صاحب القصيدة الشهيرة الرائعة "شاه جو رسالو" (يوميات الشاه) والتي تحتل مكاناً لا يزاحمه شيء في الأدب السندي القديم والحديث. وزيارة بهت شاه من قبل أي شخص ستفتح الباب للـ"سندولوجي" وهو التخصص في حضارة وادي السند، مثلما هناك تخصص في "علم المصريات" موضوعه حضارة مصر القديمة. ومتياري مشهورة بحرفة الأجراك، في حين أن مدينة هالة هي سوق لجميع الحرف بما فيها الأجراك، والتطريز السندي، وأعمال الخشب، والبلاطات المزججة بالأزرق والأبيض "كاشي"، وأعمال الطين ونسيج الأقمشة، مثل الـ"سووسي".

إن الدافع لذكر الجمال المذهل للمشاهد البانورامية على طول الطريق خلال الرحلة من كراتشي إلى هذه الأماكن هو ببساطة لا يقاوم. الشفق الضبابي، النطاق الواسع الممتد لحقول الخردل الأخضر والأصفر المتفتحة أوراده ، مزارع الموز والمانجو الجذابة، وحقول القمح الخضراء الشاسعة والتي يتخللها منظر بعض الفتيات القرويات وهن يرتدين الألوان البراقة من الأصفر، والأخضر، والقرمزي والبرتقالي، وهنا وهناك تجد مشاتل زهور بألوان متعددة في كامل تفتحها، وطيور بيضاء صافية اللون مهاجرة في تحليق أنيق فوق نهر السند القديم، وهي ليست سوى لمحات قليلة من هذه الرحلة. المغني الشعبي الباكستاني الأسطوري سآلان الفقير" ذو الشخصية المتواضعة هو فنان ملهم يؤدي أعماله الفنية مرتديا الأجراك الأنيق، بما في ذلك عمامته التي تشبه ألوان الطاووس والمصنوعة من الأجراك. ويعتبر اللون الطابع الثابت في الأعمال الموسيقية في المجتمع السندي.

إن أصل كلمة "الأجراك" ليس واضحا جدا، وقد التقيت حرفيا متمرسا في متياري فاقترح، أن الإسم جاء من "أوج روخ" (إذهب اليوم)، ولكن القصة التي تقف وراء هذا الإقتراح تبدو ملفقة بسبب الثغرات في الأسطورة.

معظم الباحثين ذي المصداقية يرون أن الكلمة العربية "الأزرق" هي الجذر الذي أخذ منه الأجراك لأن اللون النيلي يستخدم في صبغ الأجراك. ولست في خلاف مع المجموع في هذا الإشتقاق، وأنا أفهم من جهة علم الصوتيات أن ليست هناك صعوبة في إبدال حرف بحرف بين العربية والسندية. ولكن توقعي الشخصي هو أن الكلمة مأخوذة من "أجرك" في اللغة العربية والتي تعني "مكافأتك". وكان الحكام المسلمون يكرمون من يترددون على مجالسهم بثوب غالي. وأعتقد أن حكام السند المسلمين واصلوا هذا التقليد ومنحوا "الأجراك" تقديرا للخدمات القيمة التي يقدمها الأفراد، وما زالت هذا العادة جارية حتى اليوم في تكريم الضيوف في السند.

وعند التفكير في مختلف العمليات التي تنطوي عليها صناعة الأجراك، لا سيما الطباعة التي هي قلب هذه الحرفة، فإن صنع الأجراك يبدو فنا علميا. والأسلوب المستخدم يتيح في الطباعة امتصاص اللون من قبل قسم من القماش وليس الأقسام الأخرى المراد تركها بغير لون. وتبدو العملية وكأنها مثل صبغ بعض الأجزاء دون غيرها في الفحص المجهري حيث تلوّن مختلف الميكروبات بشكل انتقائي.

طبع الأجراك

Ajrak printing

الأجراك المطبوع

Printed ajrak

مطبوعة (معروفة محليا بإسم "لوته") لعدة ساعات. وبعد عصرها، تلف، وتغطى بقطعة أخرى من القماش وتوضع في إناء معدني يوضع فوق سطح طيني يسخن بالنار للتبخير. والغرض من ذلك هو التخلص من التصلب. وبعد تبخير القماش ينشر ليجف، ثم تكرر هذه الخطوة أربع مرات أو إلى الحين الذي لا يلاحظ فيه تعكرا في الماء المصفى منها.

وفي المرحلة التالية يعامل القماش بخليط من روث الإبل والزيت، يليها الغسيل المتكرر من أجل التبييض، وتعزيز المرونة. ثم تقطع قوالب الطباعة من خشب السندي وبشكل زوجي (للخطوط الخارجية والتفاصيل الداخلية)، وبمهارة ، ثم ينشر عليها خليط مائي فيه كبريتات الألومنيوم، والتانين، والصمغ العربي والطين. ثم يوضع الصبغ الأحمر (وتستعمل اليوم مادة اصطناعية) يدويا باستخدام القوالب المذكورة. ثم ينشر روث البقر الجاف المسحوق على المناطق المطبوعة لمقاومة امتصاص الصبغ الأزرق عندما يغطس في أحواض اللون النيلي في المرحلة التالية. بعد الغسيل والتجفيف يتكرر الصبغ بالنيلي عدة مرات للتأكد من التوزيع المنتظم للون، ويليه الغسيل المتكرر. ثم يعاد الصبغ بالأحمر والغسل لعدة مرات. وبسبب ارتفاع الكلفة، فإن مواد الصبغ النيلي والأحمر الاصطناعية تستخدم اليوم. وما يزال النيلي يزرع في بعض مناطق إقليم السند ولكن يباع معظمه إلى مصنعي أصبغة الشعر أو المستهلكين للاستخدام المنزلي في الغسيل، لأن الأصباغ الإصطناعية، تعتبر غير آمنة (للحساسية وأنها مسببة للسرطان) عندما تستخدم في الملابس التي تتماس مباشرة مع جلد الإنسان لفترات طويلة. ولذا فإن استخدام الأصباغ الطبيعية متفوق بكثير على الممارسة الحالية، ولكن هذه الممارسات المتبقية من الحضارات القديمة تحتاج إلى الحفاظ عليها من أجل أهميتها للثقافة والمجتمعات. ليس فقط أن زراعة النباتات، مثل نيلي، ينبغي زيادتها ولكن أيضا ينبغي تشجيع الشجيرات العلفية لتغذية الأحراش.

الأسطورة التي تقول إن الأجراك بارد في الصيف ودافئ في الشتاء، ربما يكون يعتمد الأهالي بشكل كامل على الموارد الطبيعية المحلية ويستخدمون القطن الأصلي، ويسخرجون الألوان، مثل الأزرق النيلي والصبغ الأحمر من نباتات محلية، وفضلات الحيوانات، مثل البقر والجمال، وغيرها من المواد المتوفرة محليا. وهناك نهر السند الذي يفي بالحاجة إلى الماء في عمليات الغسيل، وبإسراف، حيث تكون الحاجة إلى الغسل أربع عشرة مرة خلال الإنتاج.

حجم القطعة المطبوعة هو نحو 5 0,9 متر مربع، وهي تطبع في شطرين متطابقين حيث يؤخذ بنظر الإعتبار عملية الخياطة التي قد تنطوي على قصها وتفصيلها وزيادة العرض وجعله صالحا للاستخدام في خياطة ملابس السيدات.

في البداية، ينقع في الماء نحو أربعين من هذه القطع المنشاة (وضع فيها النشا)، والمنسوجة، وقطعة قماش قطنية غير

مغنون صوفيون شعبيون

Devotee folk singer

الأجراك المطبوع

Printed ajrak

طبع الأجراك

Ajrak printing

تفسيرها بأن الدينيم (وهو القماش الذي تصنع منه السراويل المعروفة بـ"الجينز")، خلافا الدينيم المعامل بالانزيم، يصبح أوسع بسبب مرونة النسيج وحصره للهواء. وخلال الشتاء يكون الهواء المحصور بمثابة مادة عازلة، مثلها في ذلك مثل الصوف. وأما خلال الصيف فهو يحول دون تدفق الهواء الحار. وأيضا فإن مادة التانين، المستمدة من النبات، تجعل النسيج واقيا من تقلبات الطقس. وأعتقد أن هذه الخصائص المشتركة هي التي تجعل القماشين التقليديين الأجراك والدينيم صالحين للاستخدام في كل الفصول.

في 22 شباط/فبراير 2008، مرت الذكرى السنوية الحادية والستين بعد المائتين لشاه عبد اللطيف بهتاي حيث احتفل بها ومنحت عطلة رسمية في جميع أنحاء إقليم السند. وقد زارت في الماضي المستشرقة الألمانية الشهيرة آن شميل هذا الضريح مرتين. وترجمت الباحثة المعروفة إلزا قاضي منتخبات من قصيدة "شاه - جو - رسالو". ومن دواعي السرور أن يتأمل المرء في الكيفية التي صاغ فيها شاه لطيف بهتاي أغنيته الجميلة المحلقة في أجواء سماوية، من مواد بيئة ترابية، قاحلة، وكيف استطاعت إلزا قاضي بأن تمسك بجوهرها في عملية الترجمة. الاستخدام الرمزي للإبل، والأعشاب المالحة والغسيل وغيرها، تشير بقوة إلى أن الأجراك كان يستخدم بكثرة، على الأقل في أيام شاه بهتاي. ■

نساء بدويات من السند Nomadic Sindhi women

"مثل أوراق النباتات العريضة الطازجة هن يرتدين
الشالات التي تومض مثل الحرير الزمردي اللون"

"جميلات مثل الورود الحلوة
هي أردية الفتيات في السوق"

"في وقت ما كان الأمير هوات
قد اختار غسل ثيابي
والآن يرفض حتى أصحاب الجمال
أن يصحبوني معهم"

"ثوبي ممزق من جهة الأكتاف:
ورأسي حاسر للأسف
آه يا أختي في سوق بهامبور
قولي لي ماذا علي أن أفعل الآن؟"

"لقد ربطته بالقرب من بعض الأشجار الضخمة
لعله سيأكل بعض البراعم
هذا الجمل السئ الخلق، المداوم على المكر
وهو لا يزال يجد العشب المالح حلوا.
ويل لي لأنني لا أعرف كيفية التعامل مع
هذا الجمل المحير"

عمل السلال Basket making

عمل السلال Basket making